الأدب في سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٢٤ —

أربع سنوات بغير حرب :

نشر ملتن كما أسلفنا كتيبيه الأخيرين في دفاعه عن حق إباحة الطلاق بعد كتيبه الذي ناضل فيه عن حرية الرأي ، ثم سكت منذ شهر مارس سنة ١٦٤٥ ، فلم يكتب مجادلا أو مخاصماً إلا ما ندر من الشعر حتى سنة ١٦٤٩ ، فكانت هذه السنوات الأربع فترة سكون أعقبها وثبة قوية في ميدان آخر هو ميدان السياسة

وقبل أن ننظر فيما كان من أمره في هذه السنوات الأربع نشير إلى مقال أثبت فيه رأيه في التعليم ، وقد نشره قبل ذلك ببضعة أشهر ، أي في صيف سنة ١٦٤٤

كتب ملتن هذا المقال الذي لا يزيد عن ثمان صفحات بإيحاء صديق له يدعى « صموئيل هارتلب » ، وهو ينتمي في أصله إلى دنزج ، وقد أقام في لندن منذ سنة ١٦٢٨ ، وكان مهتماً بفلسفة التعليم وتجديد أساليبه على نحو قريب مما دعا إليه بيكون في انجلترة وكومنيس في أوربا من قبل ...

وينصب رأي ملتن على التلاميذ من سن الثانية عشرة إلى الحادية والعشرين ، وتلمح في المقال على صغره خصائص أسلوبه ونوازع وجدانه ، ففيه مثلا يحسه المرء في كتيباته من السمو بالغرض في كل ما ينهض له ، وفيه النظرات الحرة التي لا تتقيد بقيد ، والتي تنفر من كل متواضع متعارف ، وفيه كذلك الاعتزاز بالرأي والتحمس له والاستناد إلى مصادره هو وإنكار ما عداها !

وعنده أن التلاميذ في هذه السن يجب أن يفرغوا في وقت قصير من قواعد اللاتينية والإغريقية ، وأن يطالعوا بعد ذلك بعض الكتب الإغريقية السهلة ؛ ويجب أن يتخلل هذه الفترة من دراستهم محاضرات تذكي في أنفسهم حب العلم والفضيلة ، ومتى اكتمل شعورهم بأداء الواجب « صعّدوا في سفح المعرفة غير معجلين ولا وانين » ؛ وعليهم أن يتقنوا دراسة الكتب الإغريقية واللاتينية في كل فروع العلم ، ولتخصص ساعة للسان العبري ، ولكيلا يسأموا ينبغي أن يعلموا المصارعة والملاكمة وأضرابهما من فنون الرياضة ، وأن يقلدوا بعض المعارك ليفهموا أساليب القتال ، وأن يسمعوا الموسيقى لتنعشهم وتهذب نفوسهم ...

وواضح من مناهجه هذا أنه يقيس على نفسه فيقترح هذا العبء الثقيل للتلاميذ ، لأنه نهض بما هو أثقل منه في غير عناء ، وكأنما تأبى عليه شدة ذهابه بنفسه إلا أن يجعل من كل ما يعمل وما يرى من رأي مثالا ينبغي أن يحتذيه الغير ... وهو في مناهجه كذلك يخرج على البيوريتانز ، إذ يوجب تعلم الاغريقية واللاتينية وشتى فنون المعرفة ...

وألقى ملتن قلمه منذ أوائل سنة ١٦٤٥ ، وظل يترقب في هدوء أنباء الحرب الأهلية التي مالت معركة نسبي بكفتها نحو أعداء الملك في يونيو من تلك السنة ، وكانت آثار الجهد بادية عليه لفرط ما جادل وناضل منذ أن ألقى بقيثارته على رغمه وشرع قلمه في سنة ١٦٤١ ليبدأ حربه على القساوسة ، ولكنه استشعر بعض العزاء في عودة زوجته إليه بعد معركة نسبي بقليل ...

وكان منزله الجديد في حي باربيكان الذي استأجره بعد عودة زوجته يكاد على سعته يضيق بمن فيه ، لذلك كانت المعيشة فيه ينقصها الراحة والهدوء ، الأمر الذي ضاق به صدره أحياناً ، ففيه لا يزال يتلقى العلم على ملتن عدد من أبناء أصحابه لا تخفت أصواتهم في أكثر ساعات النهار ، وفيه يقيم ابنا أخته ، ويقيم معه كذلك في منزله أبوه وهو اليوم شيخ كبير ، كما حضر ليقيم معه مستر پوول وزوجته ونفر من أسرتهما سنة ١٦٤٦ بعد أن سقطت أكسفورد وفورست هل في يد أنصار البرلمان . وجاء ليعيش

أخوه كرستوفر على مقربة منه ، وكان لا ينفك يضايق ملتن بصره وبمشكلاته القضائية التي جاءت في وقت واحد مع مثيلاتها من مشكلات آل پوول ...

ولم يعدم الأدب نصيراً في تلك السنين العاصفة ، وكان هذا النصير هو ناشر يدعى موزلي على جانب ملحوظ من الثقافة ، وكان مما نشره موزلي في خريف سنة ١٦٤٥ كتاب كتب على غلافه : « قصائد مستر جون ملتن الانجليزية واللاتينية ، نظمها في أوقات متفرقة »

وكان هذا الكتاب ينتظم شعر ملتن كله من أول عهده بالقريض حتى ذلك اليوم ؛ وفي الصفحة الأولى أثبت ملتن عبارة مقتبسة من فرجيل مؤداها أن للشعر هواه ومتجهه لا للكتيبات ، وأنه لا يحب أن يعرف بشيء إلا بالشعر ، وأثبت كذلك في تصدير ديوانه ما تعنى لشعره من تقريظ الأجانب إياه وثنائهم على صاحبه!

ولا ريب أن خصومه من المتزمتين قد وقعوا كما صورت لهم عقولهم وتوازعهم على أكثر من غميزة في هذا الشعر الذي يزخر بصور الجمال والفتنة وخرافات الاغريق والرومان ، وفي تلك الأغنيات التي لحنها على أوتاره الملحن (لو) الذي ينتمي إلى حزب الملك ، وأنهم لذلك تغامزوا فيما بينهم ونعتوا باللاتينية أو مايقرب منها ذلك الشاعر ، وسخروا من ذلك الذي طالب بإباحة الطلاق ، وثاروا على الرقابة وخاصم البرسبتيريز ، فما يطلب في رأيهم إلا الأباحية وإن زعم أنه يدافع عن الحرية ...

ولكن كثيراً من المثقفين تقبلوه بقبول حسن ، وأشربوا في قلوبهم محبته ، ومن هؤلاء صديق له سموق المكانة في الأدب والثقافة هو الدكتور روس الذي كتب إليه يسأله نسخة ثانية من كتابه ، فأرسلها إليه الشاعر مشفوعة بمقطوعة يثني فيها على هذا الصديق ويتواضع على غير عادته إذ يشير إلى مبلغه من الشعر في صدر شبابه ، ويحن إلى تلك الأيام التي أقبل فيها على النظم أول ما أقبل حين كان حدثا لا تكاد تبلغ الأرض قدماه إذ يكتب ، ويأسف إذ يرى اليوم ربات الشعر تروعها الحرب القائمة وتطيرها ...

والحق أن للمرء عذره بادىء الرأي إذ أحس التناقض بين أن يكون ملتن پيوريتانياً ، وأن ينطق لسانه بهذا الشعر ، ويفيض قلبه بهذا الاحساس الغامر بالحياة ومسراتها ولذاذاتها وكل جميل فيها ، ولكنه لا يكاد يتذكر مولده بين ربيع الأليزا بيثين وصيف البيوريتانز حتى يدرك ما ذكرناه عنه من قبل أنه كالطائر المتخلف الذي يغني في هجير الصيف ألحان الربيع .

ولقد أشار مكولي إلى هذه الناحية من حياة ملتن فجاء بوصف بديع يحملنا لفرط قوته على أن نثبته هنا غير منقوص . قال بعد أن تحدث عن الملكيين والبيوريتانز « لم يك ملتن منتمياً بمعنى الانتماء الحق إلى طائفة مما ذكرنا ، فلم يك پيوريتانيا ولا من ذوي التفكير المطلق من قيود الدين ولا ملكياً ، فقد اجتمعت في أخلاقه وائتلفت من صفات كل طائفة أكثرها نبلا ، فمن البرلمان والبلاط ، ومن مجتمع المنشقين على الكنيسة والغناء القومي للكتدرائية[1] ، ومن حلقات البيوريتانز الكئيبة الموحشة كالقبور ومباهج عيد الميلاد عند ذوي الجود من الفرسان ، من كل أولئك انتقت طبيعته واجتذبت لنفسها كل ما كان عظيما صالحا بينما نبذت كل ما من شأنه أن يشوه تلك العناصر الخلقية من الخلال الساقلة البغيضة ... فعاش كالبيوريتانز عيشة من يمسي أبداً أنه تحت عين الباري الأعلى[2] ، وكان مثلهم لا ينقطع تفكيره في المعين العدل ، وفي الجزاء السرمدي ؛ ومن ثم فقد أخذ عنهم احتقارهم للعلل الظاهرية ، وقوة بأسهم وطمأنينتهم وعزمهم الذي لا يلين ؛ ولكن أعظم الناس شكا في الدين وأكثرهم استهزاء به لم يكن أكثر منه انطلاقا من عدوى أوهامهم الجامحة ، ومن عاداتهم الوحشية ورطاناتهم المضحكة ، وازدرائهم العلوم ومعاداتهم متع الحياة ؛ ولئن كان يكره الطغيان أشد الكره فانه كان على الرغم من ذلك يتصف بتلك الصفات العالية القيمة التي يتحلى بها من يكتسبها ، والتي كادت تكون وقفا على أنصار الطاغية[3] فلم يك في الناس من هو أكثر منه إحساساً بقيمة الأدب ، ولا أرق

(١) يقصد مكولي البروتستنت ومن تفرع منهم من الطوائف ، والكاثوليك

(٢) هذه العبارة مقتبسة من مقطوعة ملتن التي جعل عنوانها « عندما بلغت سن الثالثة والعشرين » .

(٣) يقصد الفرسان أنصار الملك

منه استساغة لكل متعة مهذبة ، ولا أكثر منه شبهاً بسجايا الفروسية فيما يتصل بالشرف والحب ، ولو أنه كان ديموقراطياً فى آرائه إلا أن أذواقه وصلاته كانت أكثر مشاكلة للملكية والارستقراطية ؛ ولقد كانت تحيط به كافة المؤثرات التى أصلت ذوى الأناقة والشجاعة من الفرسان ، ولكنه لم يك عبداً لتلك المؤثرات بل كان سيدها المسيطر فكان كبطل[1] هوميروس الذى استمتع بلذات السحر جميعاً ولكنه لم يعتقله السحر ، فقد أصغى إلى أنشودة « السيرينز » ولكنه اتخذ سبيله فى البحر بقربهن فلم تمسسه منهن غواية تجنح به إلى شاطئهن المخوف . وشرب من كأس مَيْرِس[2] ولكنه كان يستحوذ على ترياق أكيد يبطل أثر حلاوتها الساحرة ، وكذلك كان ملتن ، فلم يك ما تملك خياله من الأوهام ليوهن من قوة حكمه على الأشياء فكان له من رجل السياسة فى شخصه دريئة تدرأ عنه ما يسحر الشاعر فيه من أسباب الروعة والجلال والخيال ؛ ويدرك مانعنيه بقولنا هذا كل من يتبين مبلغ ما هنالك من تضاد بين ما أفصح عنه من عواطفه فيما كتبه من مقالات عن القساوسة وبين تلك الأبيات الرصينة الجميلة عن المعارة الكنسية والموسيقى الكنسية فى قصيدته البسبروزو التى نشرت حوالى ذلك الوقت الذى نشرت فيه المقالات[3] ، وتلك من التناقضات التى تسمو بأخلاقه فى نظرنا أكثر من كل شىء غيرها لأنها ترينا كم ضحى ملتن من أذواقه وإحساساته الخاصة لينجز ما يعتقد أنه واجبه نحو الانسانية ؛ وإن كفاحه لهو بعينه كفاح عطيل النبيل ، ذلك الذى يرق قلبه ولكن يده ثابتة ، والذى لم يأت عملا قط عن كراهة بل فعل ما فعله كله بدافع الشرف فهو يقبل خادعته الحسناء قبل أن يهلكها » .

ويخيل إلينا أنه وقد رأى شعره فى كتاب يلقاه منشوراً يتداوله الناس قد عاود نفسه الحنين إلى النظم ، وتمنى لو ترك ضجيج الحرب وأنباءها وعاد إلى محراب الفن ، ومن ثم كانت مقطوعته عن الساحرة التى نظمها سنة ١٦٤٥ والتى جعل عنوانها « إلى صديق هنرى لو » ؛ وكان لو هو الذى لحن له بعض أغانى أركادس و كومس كما أسلفنا ومثل دور الروح الحارس فى الغنائية الثانية وبين الشاعر والملحن من صدر شبابهما محبة ومودة توثقت عراها ولو أن لو كان ملكياً ، ولكن فنه كان أعز على صاحبه من أن يتجافاه بسبب الاختلاف المذهبى بينهما مهما اشتد كما أنه كان لشخصه عند ملتن مكانة لا تدانيها لأحد غيره مكانة . وفى هذه المقطوعة يرفع ملتن قدر لو ويعزو إليه فضل تهذيب الموسيقى فى قومه . ذلك الفضل الذى لن تنساه العصور المقبلة ، كما أنها لن تنسى عظيم صيته ، ويقول لصاحبه فى ختامها « لقد مجدت الشعر ، وعلى الشعر أن يحلق كيما يمجدك ... ولسوف يأذن دانتى للصيت أن يرفعك مكانا أعلى من مكان مغنيه كازلا الذى لاطفه كيما يغنى له إذ لقيه فى المطهر فى غبش أرق من غبش الجحيم »

ولكن الشاعر لا يكاد يلمس بكفه هذه الأوتار الهادئة الساحرة التى طال به عهد هجرانه إياها وعاوده الحنين إليها حتى يدعها إلى أوتار صاخبة ترن رنيناً مزعجاً مثل ضوضاء المعركة ، فقد مس أذنيه طنين هو بقية سخط البرسبتيريز على آرائه فى الطلاق ، فنظم سنة ١٦٤٦ مقطوعة عاوده فيها عنفه وصرامة هجائه ونشرها تحت هذا العنوان « إلى مستكرهى الضمائر الجدد فى عهد البرلمان الطويل » وفيها يرمى البرسبتيريز بتهم قاسية . فيقول إنهم وإن كانوا قضوا فى الواقع على سلطة القساوسة فانهم لم يفعلوا ذلك إلا ليستكرهوهم بعبادتهم ضمائر الناس التى حررها المسيح ، وأنهم لم يكونوا خيراً من القساوسة الذين قوضوا سلطانهم لا بدافع النقمة على آثامهم بل بدافع حسدهم إياهم على تلك الآثام ، ثم يتوعدهم الشاعر بكشف الستار عن الاعيبهم

(١) يقصد مكولى « أوليس » بطل الأودسة فقد مر فى سفينه بالساحل الذى كانت تغنى عنده جنيات البحر الثلاثة المعروفات باسم « السيرنز » والتى كانت أغانيهن تغوى البحارة فتهلكهم ، وقد قاوم سحرهن بأن ربط نفسه الى شراع السفينة وسد بالشمع أذ أن البحارة .

(٢) ساحرة كانت تحيل بكأسها الرجال إلى دواب أو طيور ولكن أوليس وقد مر بجزيرتها وشرب من كأسها كان معه عشب أبطل به سحرها.

(٣) فرغ ملتن من حربه على القساوسة سنة ١٦٤٢ ونشرت قصائد سنة ١٦٤٥ فلعل مكولى يقصد ماجاء من طعن على القساوسة بوجه عام فيما تضمنته كتاباته عن البرسبتيريز سنة ١٦٤٤ أما تلك الأبيات فقد عبر بها ملتن عما بثته رؤية المعارة الكنسية وسماع الأرغن من روعة الدين وجلاله فى نفسه وكان يصف كنيسة قديمة كاثوليكية .

ومكرهم ويستعدى عليهم البرلمان ، ويذكر أسماء بعض رجالهم فيسخر منهم ويتجاهلهم ، ويختم مقطوعته بتلاعب لفظي يفهم منه أن البرسبيتر ما هو إلا قسيس كتب اسمه غير مختصر .

وبعد هذه المقطوعة آثر ملتن أن ينفض يديه من الخصومات ولعله سئم طول القتال ، أو لعل ذلك لأنه في الواقع لم يجد ما يثيره ويسخطه ، أو لعله يئس من بني قومه جميعاً ورآهم لا يستحقون منه ما يلقى من أجلهم من عنت الخصومات وغل الحزازات .

ولكنه وقد ركن إلى الراحة لم يظفر بها في بيته فقد ازدادت في البيت دواعي متاعبه وضيقه ، فأضيف إلى ما فيه من جلبة صراخ بنتين ولدتا له تباعاً في سنتي ١٦٤٦ وما بعدها ، وما زال جيرانه وأنسباؤه يضايقونه بمشكلاتهم وأحاديثهم التافهة التي يتجرعها ولا يسيغها ، ولقد شكا من هؤلاء الناس فيما كتبه إلى صديق له بإيطاليا سنة ١٦٤٧ يصف حاله فقال : « هؤلاء الذين لا يربطني بهم إلا مجرد الجوار يحضرون لمجالستي كل يوم فيضجرونني بل يكادون من فرط ما أحس به من ثقلهم يدفعون بي إلى الموت » .

وفي سنة ١٦٤٧ مات حموه مستر بوول ، ولم يمض غير قليل حتى مات أبوه فحزن الشاعر عليه حزناً عميقاً ، فقد كان يحبه ويذكر دائماً ما له عليه من فضل ، وترك له أبوه مالا تحسنت به حاله ، فصرف تلاميذه لأنه استغنى عما كان يناله منهم من أجر نظير تعليمهم ، ولأنه كانت تتمز على قلبه الرغبة في أن يعود إلى قيثارته ، واستأجر ملتن منزلا جديداً أكثر سعة وأحسن موقعاً ، وأمل أن يجد فيه ما ينشده من هدوء .

ولكن شيئاً جديداً يقلقه ويخيفه وتتكدر له جوانب نفسه ، وذلك أنه يوقن من تضاؤل بصره ، ولقد بدأ ذلك الإحساس في نفسه منذ مستهل سنة ١٦٤٥ ، فظنه يومئذ وهماً من الوهم ، ولكنه اليوم تلقاء حقيقة راهنة ، فإنه إذا قرأ في الصباح تألمت عيناه وأحس بظلمة تغشى الجانب الأيسر من عينه ، حتى لتحجب عنه ما يكون في هذا الجانب من أشياء ... فإذا أضيفت هذه الظلمة إلى ما يكتنفه من ظلمة اليأس مما ابتغى من إصلاح أمكننا أن تتبين مبلغ ما كان يعانيه يومئذ من عذاب ...

فكر ملتن أن يعود إلى الشعر ، ولكن الفجر الذي بشر به في نهاية كتيبه الأول سنة ١٦٤١ ، والذي لمح إلى طائره الصداح لم ينبثق نوره بعد ، بل لقد ازدادت حلكة الغسق من جراء هذا الاختلاف الشديد في الدين والسياسة الذي فرق الناس شيعاً وأحزاباً وطوائف متباغية متعاندة ، ومن جراء هذه الحرب المستعرة التي تزلزل المملكة ، وهيهات أن يتغنى شاعر في ليل كهذا الليل ...

واتجه ملتن إلى التاريخ ، فأخذ يكتب كتاباً في تاريخ قومه ، ويتبين المرء من مقارنته بين الأقدمين منهم الأمجاد الأذكياء وبين المحدثين الأدعياء الأغبياء مبلغ ما كان في نفسه يومئذ من سخط وازدراء لأهل عصره ، ومبلغ ما ساوره من هم وسأم من هؤلاء الذين طالما امتدحهم فأطنب في مدحهم وتوقع على أيديهم كثيراً من الخير !

(يتبع) **الخفيف**

جامعة فاروق الأول

كلية الزراعة

صنفان جديدان من الشعير

تعلن كلية الزراعة بجامعة فاروق الأول أنها توصلت إلى صنفين ممتازين من الشعير أثبتا تفوقهما من ناحية الإنتاج على الأصناف المحلية خلال السنوات الأربع الأخيرة في مناطق الدلتا ومصر الوسطى. ولدى الكلية كميات محدودة من التقاوى الممتازة لهذين الصنفين .

فعلى من يرغب من حضرات الزارعين الحصول على التقاوى بكتب طلباً للكلية عن الكمية المطلوبة مصحوباً بتأمين قدره ١٠ في المائة من الثمن باعتبار أن ثمن الأردب ١٢٠ كيلو ٢ جنيه ٥٠٠ مليم تسليم مزرعة الكلية بما فيه الفوارغ . ٥٨٨٦